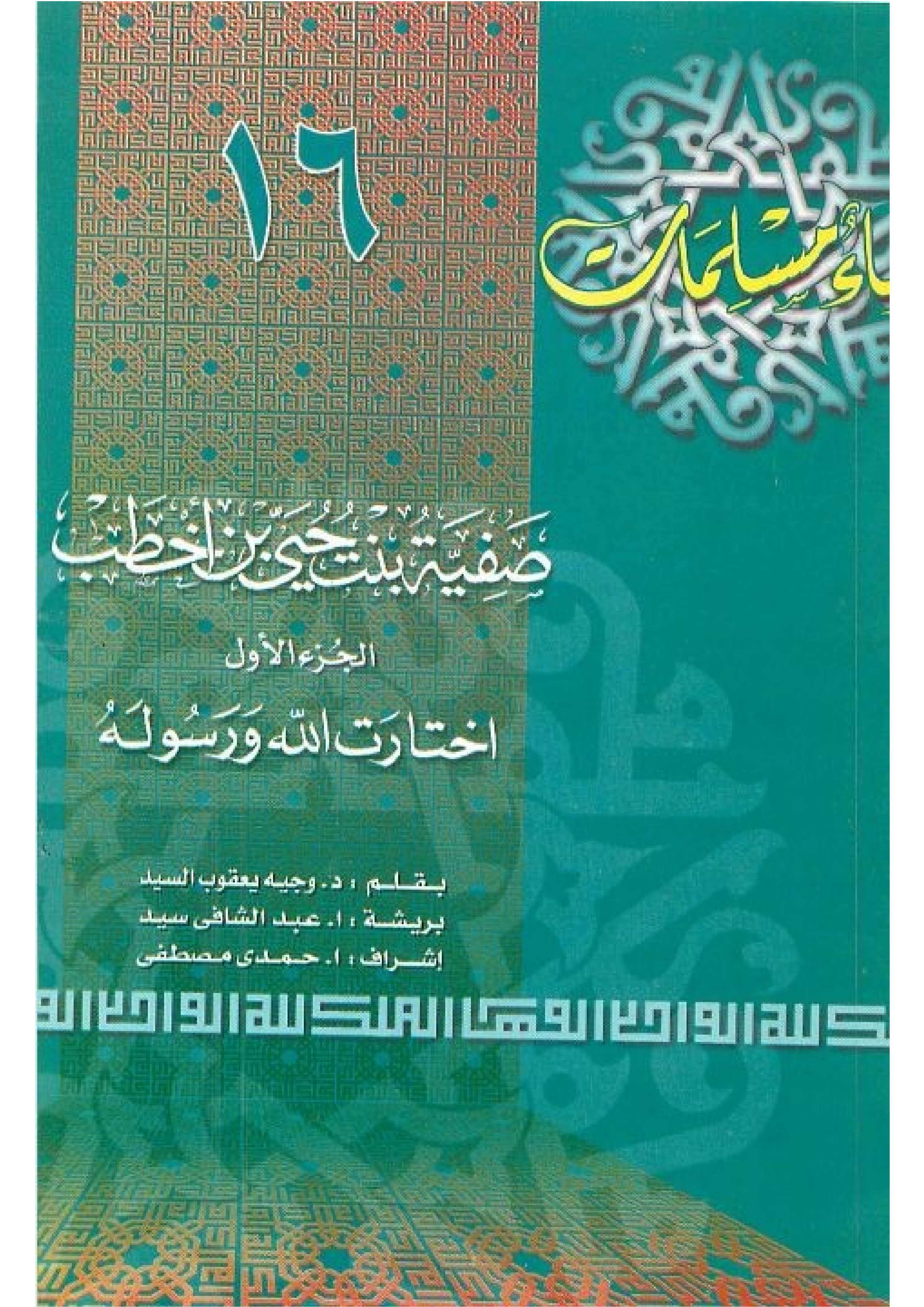


نساء مسلمات
١٦
صفية بنت حيي بن أخطب
الجزء الأول
اختارت الله ورسوله
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
بريشة : أ. عبد الشافى سيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى

أَفاقَتْ صفِيَّةُ ذات يومٍ من نَوْمِها مَذعورةً فسألَتْها أُمُّها فى قلَقٍ :

- ما بكِ يا بُنَيَّتِي ؟

فقالتْ :

- لقدْ رأيتُ اللَّيْلَةَ رؤْيا عَجيبةً حقًّا ، ولا أعرِفُ لها تفسيرًا .

فقالتْ أُمُّها فى لَهْفةٍ :

- ومَا هى ؟

فقالتْ صفِيَّةُ :

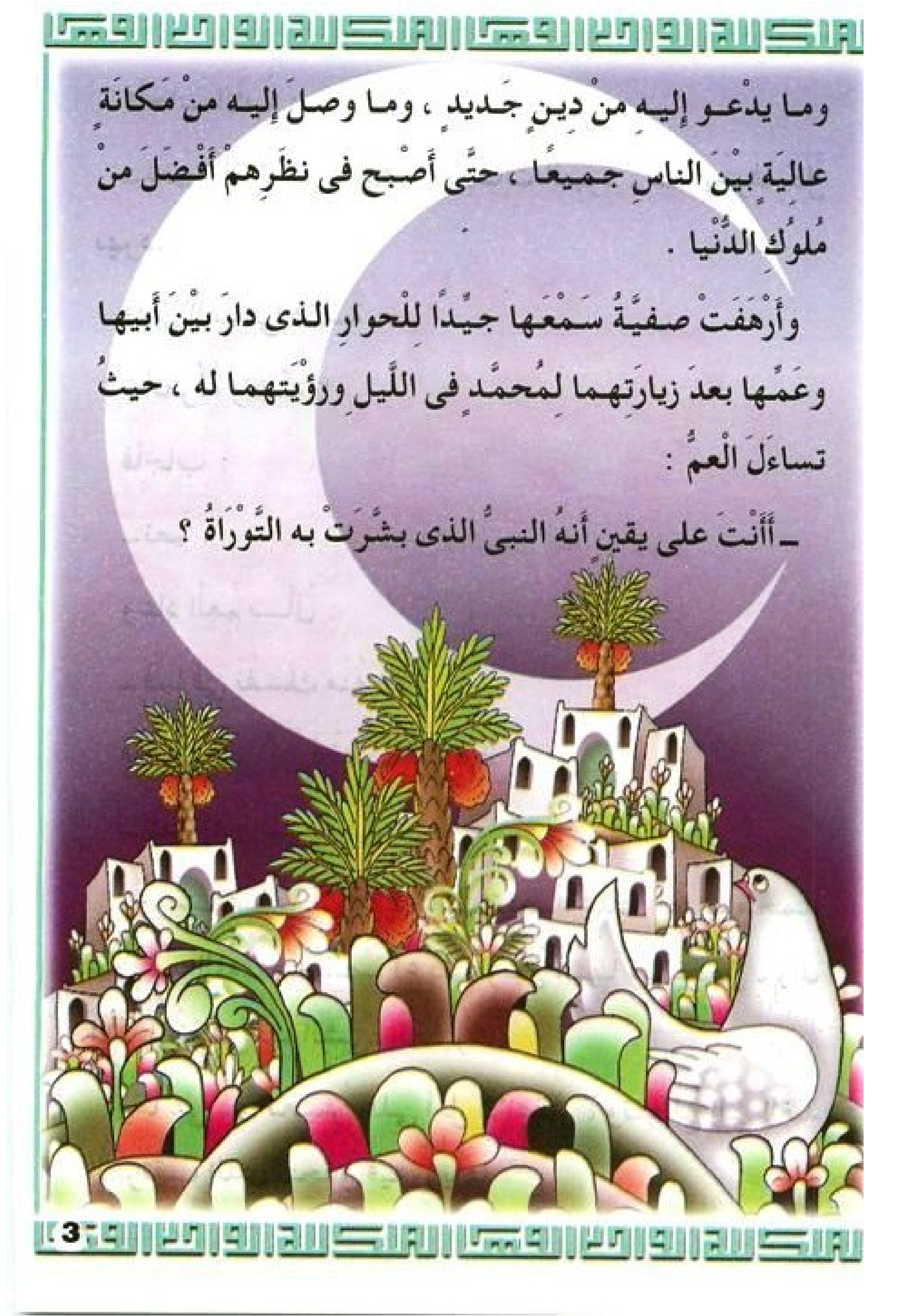
- رأيتُ القَمَرَ فى السَّماءِ فى لَيْلةِ تَمامِه وقدْ وقعَ فى حِجرِى !

ولمْ تتمالَكِ الأُمُّ نفْسَها ، فهوَتْ بيدِها على وجْهِ ابْنَتِها ، ولطَمتْها لَطْمةً قوِيَّةً تركتْ فى وجْهِها أثرًا ، وهى تقولُ :

- إنكِ تتطَلَّعينَ إلى أنْ تكونِى عندَ ملكِ العَرَبِ يا خَبيثةُ .

ومرَّتِ الأيامُ ، وبالُ صفِيَّةَ مشغولٌ بتفسيرِ هذه الرؤْيا ، وزادَ مِن انشغالِها ما فعلَتْه أُمُّها بها وما ذكرَتْه عن ملكِ العربِ ، فَمَنْ يكونُ ملكُ العربِ هذا ؟

وراحَتْ صفِيَّةُ تُتابعُ مع قومِها من اليهودِ أخبارَ النبىِّ ﷺ



ومـا يدْعـو إليـهِ من دينٍ جَديدٍ ، ومـا وصلَ إليـه من مَكانةٍ عاليَةٍ بيْنَ الناسِ جميعًا ، حتّى أصْبح فى نظَرِهم أفْضَلَ من مُلوُكِ الدُّنْيا .

وأرْهَفَتْ صفيَّةُ سَمْعَها جيِّداً للْحوارِ الذى دارَ بيْنَ أبيها وعَمِّها بعدَ زيارَتِهما لِمُحمَّدٍ فى اللَّيلِ ورؤْيَتِهما له ، حيثُ تساءَلَ الْعمُّ :

ـ أأنْتَ على يقينٍ أنهُ النبىُّ الذى بشَّرَتْ به التَّوْرَاةُ ؟

فأجابَ الأَبُ :

ـ نعمْ واللَّهِ ، لقدْ عرفْتُهُ بعلاماتِ النُبُوَّةِ ، كما يعْرِفُه كلُّ يهوديٍّ .

فقالَ العَمُّ في دهْشةٍ :

ـ أتعرِفُهُ وتثْبتَّهُ ؟

فأجابَ :

ـ نعمْ .

وعادَ الْعمُّ يسألُ :

ـ فما في نَفْسِكَ منْهُ ؟

فأجابهُ حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ في غَيْظٍ :

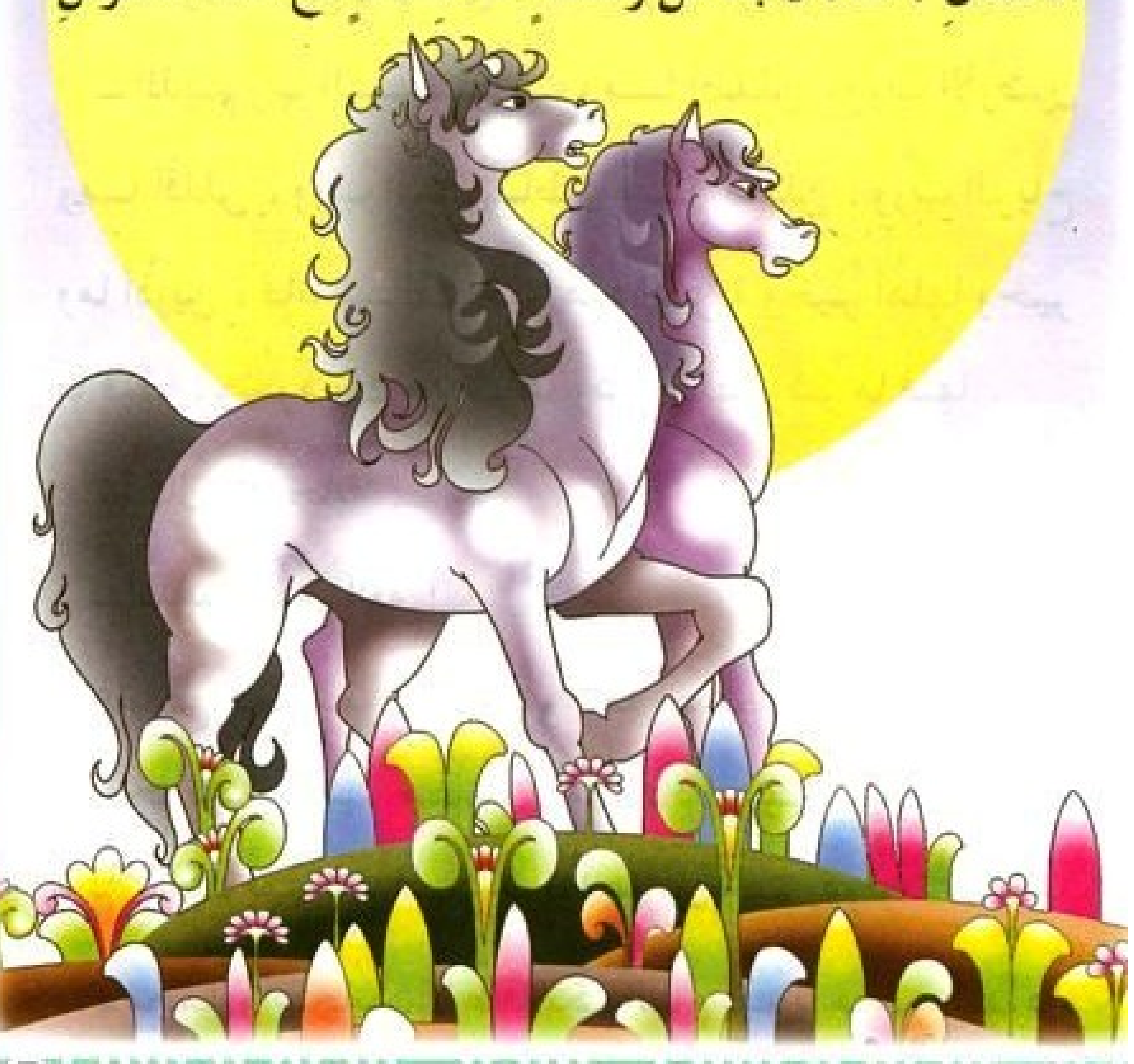
ـ عداوتُه واللَّهِ ما حَيِيتُ !

وعَلمتْ صَفيةُ أنَ أُمَها كانتْ تقصدُ بملكِ الْغربِ محمدَ ابنَ عبدِ اللَّهِ ، وأَنَّ الصِّراعَ بينهُ وبيْنَ أبيها سيَشْتَعِلُ ، وأَنَّ الأَقْدارَ تُخفي لها الشَّيْءَ الْكثير ..

وها هي ذي تعيشُ على أملِ الانْتظارِ ، وتتطلَّعُ إلى الْغدِ الْمُرتَقَبِ الذي تتحقَّقُ فيه رؤْياهَا .

وَمرَّتِ الأَيامُ مُسْرِعةً ، وبدأَ الصِّراعُ يشْتَدُّ بيْن محمد ﷺ وبيْنَ الْمشرِكين ، وانْحازَ الْيهودُ إلى جانبِ الْمشركين ، برغْمِ عُهُودِهِمْ مع رسولِ اللَّه ﷺ ، ألا يَتحالَفُوا ضِدَّهُ أوْ يتآمَروا عليْه .

وبَعْد خِيانة الْيهودِ وتآمُرِهمْ مع الْمشركين في غزْوَةِ الْخَنْدَقِ ، كانَ لا بُدَّ من وَقْفةٍ حاسِمةٍ مع هذه النُّفوسِ



الشِّرِّيرةِ والْخائنةِ ، فأَمرَ الرسولُ ﷺ أصْحابَه بالتَّوَجُّهِ إلى خَيْبَرَ .

وسارَ الرسولُ ﷺ وأَصْحَابُهُ إلى خَيْبَرَ فى أَواخِرِ شَهْرِ الْمحرَمِ للسنة السَّابعَة للْهجْرة ، وكانَ معهُ ﷺ فى هذه الْغَزْوة أَلْفٌ وأَرْبَعُمائة مُقاتِلٍ ، فلما اقْتربَ الرسولُ ﷺ من هذه الْقَرْيَة ، رفعَ يدَيْه إلى السماء ودعا ربَّهُ قائلاً :

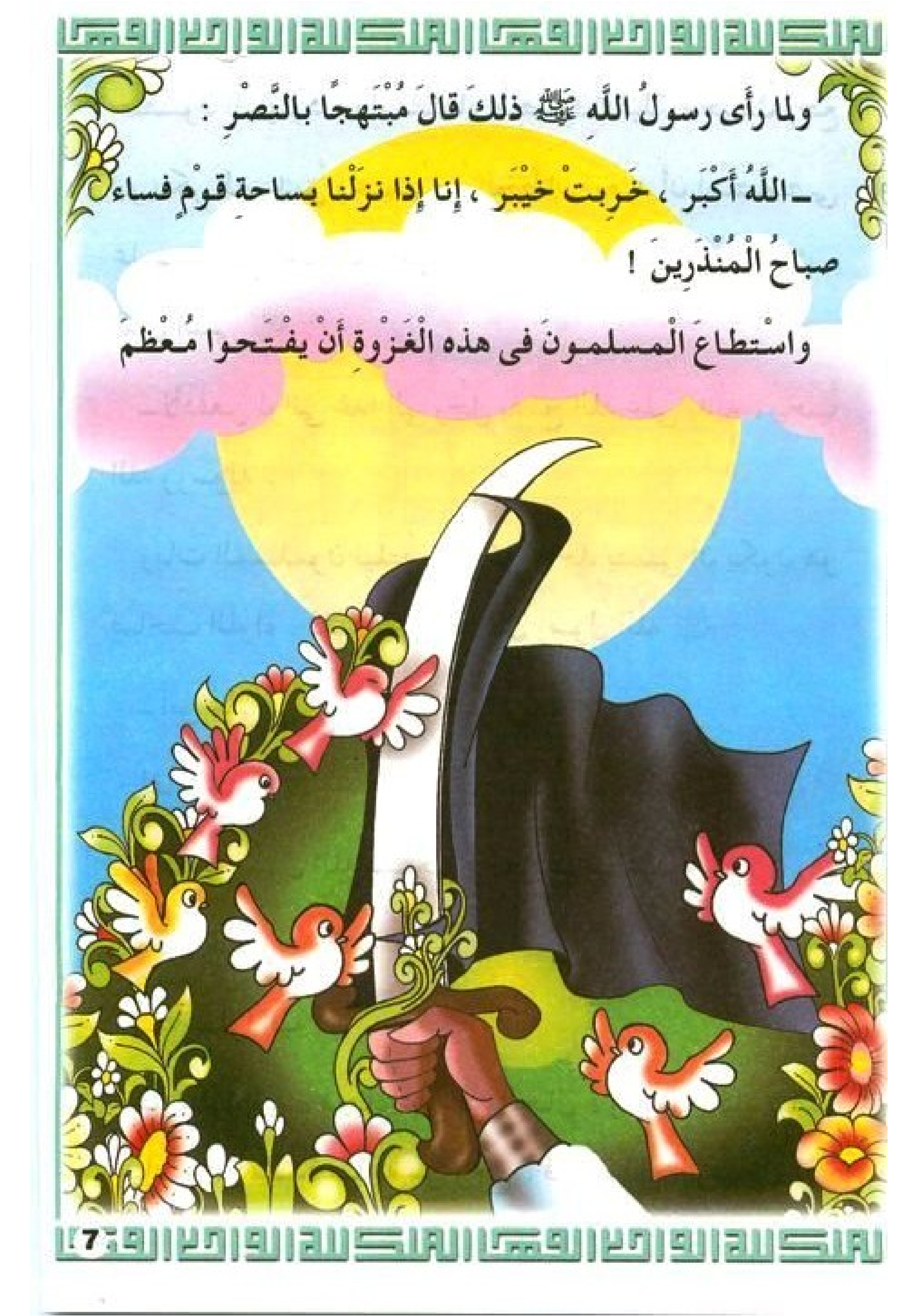
ـ اللهمَّ ربَّ السَّموات وما أَظْلَلْنَ ، وربَّ الأَرَضين وما أَقْلَلْنَ ، وربَّ الشياطينِ وما أَضْلَلْنَ ، وربَّ الرياحِ وما أَذْرَيْنَ ، فإنا نسأَلُك خيرَ هذه الْقَرية وخيرَ أَهْلِها وخير ما فيها ، ونَعُوذُ بكَ من شرِّها وشرِّ أَهْلِها وشرِّ ما فيها .

ثم قالَ لأَصْحابه :

ـ أَقْدِموا باسْمِ اللَّه !

فانْدفَعَ الْمسلمونَ كالسَّيْل نحوَ حُصُونِ الْيهودِ ، وراحوا يَفْتَحونَها حِصْناً حِصْناً ، وما كادَ الْيهودُ يرونَهمْ حتى امْتلأَتْ قلوبُهم بالرُّعْبِ ، فولَّوْا هاربينَ وهمْ يقولونَ :

ـ مُحمدٌ وأَصحابُه ، لا طاقَةَ لكُمُ الْيومَ بهمْ يا معْشَرَ الْيَهودِ .



وَلما رأى رسولُ اللهِ ﷺ ذلكَ قالَ مُبْتهجًا بالنَّصْرِ :

ـ اللهُ أكْبَر ، خَرِبتْ خيْبَر ، إنا إذا نزَلْنا بساحةِ قوْمٍ فساءَ

صباحُ الْمُنْذَرِينَ !

واسْتطاعَ الْمسلمونَ فى هذه الْغَزْوةِ أنْ يفْتَحوا مُعظَمَ

حُصُونِ الْيهودِ ، باسْتِثْناءِ حُصُونٍ قَليلَةٍ ، حيثُ رجعَ أَبو بكْرٍ الصديقُ وعمرُ بنُ الْخطَّابِ بعْدَ أنِ اسْتَعْصَى عليهِمَا فتحُ هذه الْحُصُونِ ، وأَخْبَرا الرسولَ ﷺ بذلكَ ، فقالَ النبيُّ ﷺ :

ـ لأَدْفَعَنَّ لِوائى غدًا إلى رجُلٍ يفتَحُ اللَّهُ على يدَيْهِ ، يُحبُّ اللَّهَ ورسولَهُ .

وباتَ الْمسلمون ليلَتَهُمْ ، وكلٌّ واحدٍ يتمنَّى أنْ يكونَ هو صَاحِبَ اللِّواءِ ، فلما كانَ الْغَدُ قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ :

ـ أَيْنَ عليُّ بْنُ أَبى طالبٍ ؟

فقالوا له :

ـ هو يا رسولَ اللَّهِ يشْتَكى وَجَعًا أَصابَ عَيْنَيهِ .

فقالَ الرسولُ ﷺ :

ـ فأَرْسِلوا إليهِ .

فأَرْسَلوا إليه ، فجاءَ عليٌّ فى الْحالِ ، وهو لا يكادُ يُبْصِرُ أَمَامَهُ من شِدَّةِ ما بهِ منْ وجَعٍ ، فدعا له الرسولُ ﷺ

بالشِّفاءِ ، فشفاهُ اللَّهُ تمامًا ، حتى كأنْ لمْ يكُنْ بهِ وَجَعٌ .

وأَعْطَى الرسولُ ﷺ الرايةَ لعلىٍّ بنِ أَبى طالبٍ وأَمَرهُ أنْ يفتحَ هذهِ الْحُصُونَ الْمَنيعةَ ، فأَخذَ علىٌّ اللِّواءَ وهو يقولُ :

ـ يا رسولَ اللَّهِ ، لأُقَاتلَنَّهمْ حتى يُؤْمنوا باللَّهِ ورَسولِهِ .



فقالَ لهُ الرسولُ ﷺ :

ـ أَنْفِذْ على رِسْلِكَ حتى تنزِلَ بساحتِهِمْ ، ثمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلامِ ، وأَخْبِرهم بما يَجِبُ عليهم مِنْ حقِّ اللّه فيه .

ثم قالَ لهُ :

ـ فواللّه لأَنْ يهْدِىَ اللّهُ بكَ رَجُلاً واحداً خيرٌ لك مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ !

وانْطلقَ علىُّ بْنُ أَبى طالبٍ إلى حصُونِ أَهْلِ خَيْبَرَ ، فقاتلَ قتالَ الأَبْطالِ حتى كانَ الْفتحُ على يديْه ، وغَنمَ الْمسلمونَ كلَّ ما فى تلْكَ الحصُونِ من الأَمْوالِ ، ووقعَ عددٌ كبيرٌ من النِّساءِ سبَايَا للْمسلمينَ .

وكانَ من بينِ السَّبايا «صَفيَّةُ بنْتُ حُيَىِّ بن أَخْطَب» زَعيمِ بنى النَّضيرِ ، والتى ينْتهى نَسَبُها إلى هارونَ عليه السلام .

ونظرَ الْمسلمونَ إلى «صفية» فرقُّوا لحالها وقالوُا :

ـ لقدْ فُجعتْ هذه الْمسكينَةُ بفقْدِ أَهْلها فى هذه الْغزْوة ، كما أَنها وقعتْ أَسيرةً هى وابْنةُ عمِّها ، برَغْمِ أَنها بنتُ زعيمٍ كبيرٍ له مكَانتُهُ بيْنَ قومِه .

ثم قالوا لِبلالٍ :

ـ اذْهَبْ بهما إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ ، لكَىْ يَقَرِّرَ بنفسهِ ما يراهُ مُناسِبًا بشأْنِهما .

واصْطَحَبَ بِلالُ بنُ رباحٍ الْمرأتيْنِ ، ومرَّ بهما عبْرَ الْوادى الذى شهِدَ هذهِ الْمَعْركةَ ، وكانتْ جُثَثُ الْقتْلى ما تزالُ



مُلْقاةً على قارِعَةِ الطَّريقِ ، وما إنْ رأتْ «صفيةُ» هذا الْمَنْظر حتى فاضتْ عيناها بالدَّمْعِ ، لكنها ظلَّتْ هادئةً صامتةً ، أما ابْنةُ عمِّها فقد راحتْ تحْثُو التُّرابَ على رأْسِها وتصْرُخُ بأعْلى صوتْها ، ولمْ تتوقَّفْ عنِ الْبكاءِ والصُّراخِ ، حتى قالَ الرسولُ ﷺ في غضَبٍ :

ـ أبْعِدوا هذه الشَّيْطانَةَ عنِّى !

ثم قالَ لبلالٍ مُعاتبًا :

ـ أنُزِعتَ الرَّحْمةُ من قَلْبكَ حينَ تمرُّ بالْمرأتَيْنِ على قَتْلاهُمَا ؟

وقالَ بلالٌ للنبىِّ ﷺ :

ـ يا رسولَ اللَّهِ ، إنَّ صفيَّةَ بنتَ حُيىٍّ كانتْ فى سَهْمِ أحدِ الصَّحابةِ ، ولكنَّ أهْلَ الرأْىِ والْمشورةِ أجْمعوا على أنها لا تصْلُحُ إلا لكَ ، لأنها سيِّدةُ نساءِ بنى النَّضيرِ .

فاستَحْسَنَ الرسولُ ﷺ هذا الرأْىَ ، وأَبى أنْ تكونَ صفيةُ بنْتُ حُيىٍّ سيدةُ بنى النضيرِ أمةً مملوكةً لمنْ هو دُونَها مكانةً ، فأمرَ الرسولُ ﷺ أصْحابَهُ فَحملوا صفيَّةَ على بعيرِه ،

فعَلموا أنَّ الرسولَ ﷺ قد اصْطفاها لنفْسه وقالوا لبعضهم :

ـ لقد اصْطفى رسولُ اللّه ﷺ صفيَّةَ لنفْسه ، وبذلكَ فقدْ نجَّاها اللّهُ من العبوديّة ، وعوّضَها عن فقدِ أهْلِها خيرًا .

وتطلعَتْ صفيَّةُ إلى الرسولِ ﷺ ، فرأَتْ نورًا يضيءُ من جَبينِه ، وهمَّتْ بأنْ تتكلَّم لكنَّ حياءَها منعَها منْ ذلكَ .



وحاولَ الرسولُ ﷺ أَنْ يُخرِجَها من صَمْتِها ويُدْخِلَ السرورَ إلى قلْبها فسألها قائلاً :

ـ هلْ لكِ فيَّ ؟

وفى تلْكَ اللَحظَةِ تذكرتْ صفيَّةُ الرؤْيا التى رأتْها مُنذُ أعْوامٍ وقالتْ لنفسِها :

ـ أَحقًّا سأكونُ زوْجةً لرسولِ اللّه ﷺ ؟

ونظرتْ إلى الرسولِ ﷺ فى إكْبارٍ وقالتْ :

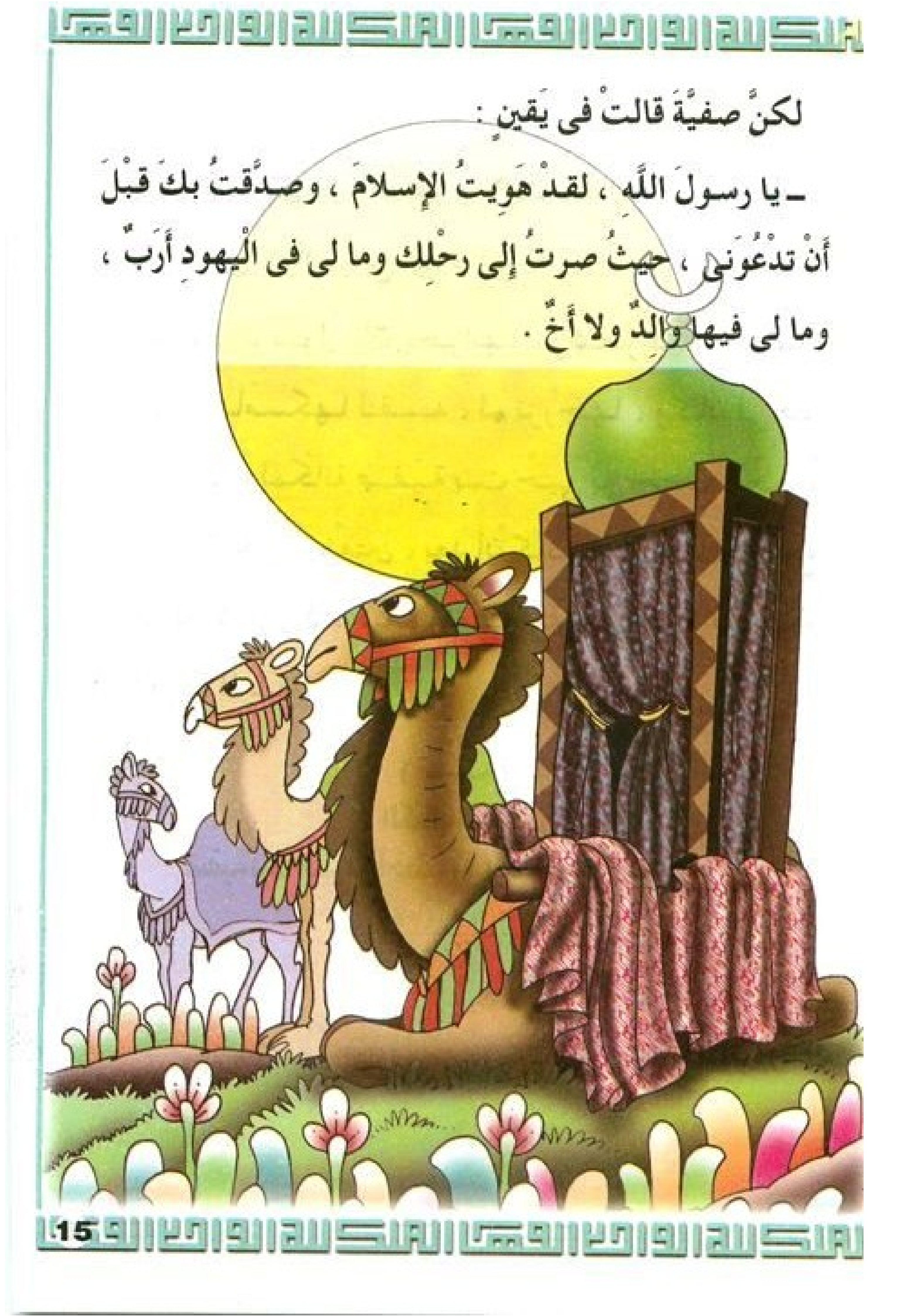
ـ قدْ كُنْتُ أَتمنَّى ذلك وأنا فى الشِّرْكِ ، فكيفَ إذا أَمْكَنَنى اللّهُ مِنْهُ فى الإسْلامِ !

وخشِيَ الرسولُ ﷺ أَنْ تكونَ صفيَّةُ قدْ وافقَتْ على الزواجِ مِنْهُ ، لأَنَهُ لا سَبيلَ أَمامَها سِوى ذلكَ ، فهِيَ مَمْلوكَةٌ له إن شاءَ أَمْسَكَها وإنْ شاءَ أَعْتقها لوجْهِ اللّهِ ، فقالَ لها رسولُ اللّه ﷺ :

ـ اخْتارى ، فإنِ اخترْتِ الإسلامَ أَمسكتُكِ لنفسى ، وإنِ اخْترْتِ الْيهودَ فعسى أَنْ أَعْتقَكِ فتَلْحقى بقوْمِكِ !

لكنَّ صفيَّةَ قالتْ فى يَقينٍ :

ـ يا رسولَ اللَّهِ ، لقدْ هَوِيتُ الإسلامَ ، وصدَّقتُ بكَ قبْلَ أنْ تدْعُونَى ، حيثُ صرتُ إلى رحْلِك وما لى فى الْيهودِ أَرَبٌ ، وما لى فيها والِدٌ ولا أَخٌ .



ثم أَضافَتْ قائِلةً :

ـ وقدْ خيَّرتَنى بيْنَ الْكُفرِ والإيمانِ ، فاللهُ ورسولُه أَحَبُّ إلىَّ من الْعتْقِ ، وأن أَرْجعَ إلى قوْمى !

وأُعْجِبَ الرسولُ ﷺ بجَوابها ، وشَعَرَ فيه بالصِّدْقِ والإيمانِ ، فأَمْسَكَها لنفْسِه ، ثمَّ تزوَّجها ، وكانَ فى هذا الزَّواجِ إعْلاءٌ لمكَانَةِ صَفيَّة بنتِ حُيَىِّ بنِ أَخْطَبَ ، حيثُ صارتْ أُمًّا لكلِّ الْمؤْمنِينَ ، بعدَ أنْ كانتْ على وشْكِ الْوُقوعِ فى مَهانَةِ الأَسْرِ والْعُبودية ، ولَعِبتْ صفيةُ فى حياةِ النبىِّ ﷺ دوراً مُهمًّا للغايَةِ !

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

صفية بنت حيى بن أخطب (٢) حكمة زواج النبى ﷺ

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٢١١٦

الترقيم الدولى : ١ ـ ٧٣٧ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧